الطالب المصرى

يدرس للشهادة لا للعلم

كان يعاب على مدارسنا إلى وقت قريب أنها تعنى بتخريج الموظفين وأن البرامج التعليمية ليست من الإحاطة أو العمق بحيث تجعل خريج المدرسة العليا شغوفا بدراسته يحمى قلبه بشهوة الثقافة ويثابر مدى حياته على التحصيل والبحث واستقصاء الجديد فى الفروع التى عرف مبادئها وأصولها بالمدرسة .

وكان العائبون على حق فى هذا الذى كانوا يقولون . ولكن هذه البرامج قد تغيرت إلى حد ما . ثم إن المدارس العالية قد استحالت الى كليات جامعية وأصبحت الثقافة الخالصة قصداً والدراسة النزيهة غاية . ولا يمكن أن يقال إن كليات الجامعة تهيئ طلبتها للوظائف الحكومية ، لأن هذا الزعم تنقصه أسماء الدراسات التى يدرسها الطالب إن لم نقل موادها . بل إن الحكومة هى التى تشكو الآن وتدعى أنها لا تجد الموظفين الأكفاء من خريجى الجامعة . وهى أحيانا لا تبالى أن تعين حامل شهادة الحقوق كاتبا فى الحسابات أو نحو ذلك . وظننا أن حكومتنا سوف تنتهى إلى إيجاد دراسة معينة للخدمة المدنية — أى وظائف الحكومة — كما هو الشأن فى انجلترا وغيرها من الأقطار المتمدنة التى وجدت أن الدراسات الجامعية لا تزودها بحاجتها من المعلومات التى يتهيأ بها المرشح للوظيفة المدنية حتى يؤدى واجباته على الوجه الكامل .

ولكن الذى يعاب على الطالب المصرى فى الوقت الحاضر أن يدرس للشهادة وليس للعلم . وهو لا يكاد يحصل على شهادته حتى يطلق الكتاب أو العمل فلا يكاد يقرأ شيئا إلا لقصد التسلية ولا يكاد يقف مرة أخرى أمام أنابيب الاختبار . فكأنه كان يدرس بالجامعة لكى لا يدرس بعدها . أو كأن للعلوم حدودا نهايتها الشهادة . مع أن العكس هو الذى كان يجب أن يفرض . وهو أن الشهادة بداية لا نهاية . وأن الطالب عندما تخرج من الجامعة قد حصل على مقدار معين من العلم الذى درس يتيح له الاعتماد على نفسه فى التوسع والتعمق والاختبار والتجربة . فإن أعظم ما يمتاز به التعليم الجامعى أنه يعلم الطالب كيف يعلم نفسه . فاذا لم ينتفع خريج الجامعة بهذه الميزة فإنه لا يكون قد استغل الجامعة إلى الحد الذى ينبغى له ،

ويجب أن تكون الثقافة هواية كل متعلم التى ينفق فيها ما فاض من ماله وفراغه . والطالب الذى تمرس بالطريقة العلمية وعرف طرق الاختبار العلمى يجب الا ينقطع عند ما يخرج فيركن الى الخمول الذهنى ولذة التسلية السطحية من قراءة السخيف من المجلات أو منح الجرائد أكثر مما تستحق من العناية . بل يجب أن يشرع فى تأسيس مكتبة فى منزله تنمو كلما تقدم فى السن وتجعله على إلمام بكل ما يجد فى المادة التى درس . بل هو يحسن أيضا اذا تابع أبحاثه التى بدأها بالجامعة وجعل جزءا من مكتبته خاصا بالاختبارات والتجارب. فإن العلم لا يتقدم كما لا تزكو الاكتشافات الا فى هذا الوسط ، وسط الكبار المتعلمين يدأبون فى البحث مدى حياتهم لاستكناه أسرار الطبيعة والحياة .

وأعظم ما ينبه النشاط الى الابحاث العلمية هو الاتصال المستمر بالأوساط العلمية. لأن هذا الاتصال يحدث جوا نفسيا يحمل صاحبه على الاهتمام الدائم بمواصلة الدرس . ولا يكون هذا إلا بأن يستبقى خريج الجامعة، علاقته بالجامعة وعندئذ يجب على الجامعة نفسها أن تزيد هذه العلاقة روابط بالاجتماع والمراسلة والألقاب مع تيسير الدراسة حتى على غير القادرين على الحضور للمحاضرات لإقامتهم فى بلدة نائية عن القاهرة والاسكندرية .

وبدهى أن لغتنا فى حالها الحاضرة لا تغذو الذهن الذى يطلب الثقافة العلمية . ولذلك يجب على كل خريج من الجامعة أن يشترك فى إحدى المجلات الأجنبية بل فى بضع مجلات أجنبية تعالج المادة العلمية التى درسها فى الجامعة . فإن مهمة هذه المجلات تنحصر فى نشر الأخبار الخاصة بالمكتشفات أو المخترعات التى تتصل بالمادة أو فى نقد وعرض الكتب التى تعالجها . ولما كانت العلوم تمتاز من الآداب بوفرة ما يجد فيها فإن هذا الاتصال كبير القيمة . كما يتضح لنا ذلك مثلا من مكتشفات الطب الحديث . فقبل سنة ١٩١٥ لم يكن أحد يتحدث عن الفيتامينات التى لها أعظم الشأن الآن فى المعالجة لأمراض النقص. وقبل سنة ١٩٠٨ لم يكن طبيب يعرف قيمة العقار الخاص بمعالجة السفلس المرض الزهرى المعروف. وحديثا جدا اتضحت القيمة الكبرى للغدد الصماء . ولا نذكر العقاقير الكيماوية مثل السولفانيلاميد التى لا يرجع اكتشافها الى أكثر من ثلاث سنوات . وقل مثل ذلك فى كثير من الأدوية . فإن الطبيب الذى تخرج مثلا سنة ١٩١٠ أو ١٩١٥ ثم انقطع عن مواصلة الدراسة يجد نفسه متخلفا أعظم التخلف ومقصرا أعظم التقصير فى مهنته .

وهذا أيضا هو الشان فى جميع العلوم، فيجب على الطالب لهذا السبب أن يجعل حصوله على الشهادة بداية الدراسة المستقلة، بل بداية التجارب العلمية التى تجعل منه عضوا مفيدا لا لوطنه فقط بل للبشرية جميعها .